نصف قرن .. والحقيقة واحدة

«ينبغي ان تقال الحقيقة كاملة بالرغم من انها تحمل بين ثناياها الالم والحزن . لقد درجنا على التباهي وقرع الاجراس : (اننا) حولنا الصحراء القاحلة الى جنة عدن . (نحن) والسواعد هي سواعد احمد ومصطفى .. » (١) الكلمات لغوردون ، احد « اباء العمل العبري» (٢) الذي عاش في الفترة بين ١٨٥٦ ـ ١٩٢٢ (٣) . بعد اكثر من نصف قرن وفي عام ١٩٧٦ يعترف يسرائيل كنيغ في مذكرته الشهيرة ، وبعد نجاح اضراب يوم الارض ، .. بالحقيقة التي كان قد قالها غوردون فيقول «ترك الاضراب انطباعا قويا لدى المعامل ومؤسسات الخدمات ، بأن حسن سير الاقتصاد يعتمد على الايدي العاملة العربية . وفي الوقت نفسه اثبت السكان العرب حيويتهم بالنسبة للاقتصاد الذي يديره يهود .. » (٤).

رغم مرور ما يزيد على نصف قرن على كلام غوردون ، لم يتبدل الوضع من ناحية المبدأ ، فاليد العاملة العربية ، التي تحدث عنها كنيغ ، هي سواعد احمد ومصطفى ، التي كان قد تحدث عنها غوردون .. الذي لم يكن يعترف بالحقيقة ، حبا بالحقيقة ، بل ، لاتخاذها وسيلة تحريضية ، لكي يقوم العمال اليهود باحتلال العمل والارض .. وكثيرة هي المبررات التي يقدمها دعاة هذه السياسة ، واحيانا « الطهارة » هي السبب ، ولذا « ينبغي ان يكون كل ما يخلق ويتكون في البلاد من صنع ايدينا : كل شجرة ، كل خضرة ، كل بيت ، كل سياج ... كل شيء ينبغي ان يكون من صنع ايدينا بعرقنا نحن فقط ينبغي ان تترطب ارضنا، وايدينا نحن هي التي ينبغي ان تعيد لها الحياة .. (٥) » .وبفعل هذه الدعوة .. و«عند بداية هذا القرن قررت الهستدروت الصهيونية اقامة غابة تحمل اسم هرتزل تخليدا لذكراه ، وكخطوة اولى شرع في غرس مشتلة اشجار ... بواسطة العمال العرب . وقد اثار هذا العمل استياء عظيما بين صفوف العمال اليهود ...» لماذا ؟ «كيف يحدث ذلك ؟ غابة لذكرى القائد الكبير ، بعمل غير عبري » . وقد اعتبروا ذلك تدنيسا لحرمة هرتزل وشرفه ... «وتعبيرا عن الاحتجاج نقرر خلع المشاتل التي لم تغرس بواسطتنا .. ومن ثم نقوم بغرسها من جديد .. » (٦) . وهذا ما كان ...

في النهاية : من يملك العمل يملك الارض

ولكن المسالة ليست مسالة صوفية ، وقضية «طهارة» و «نقاء» كما فهم البعض المسالة او عبر عنها . بل قضية سياسية تتعلق بزرع المستوطنين في الارض الفلسطينية ، وبتوازن المجتمع الاسرائيلي واستكمال تكوينه الطبقي ، وكي لا يقال « ايضا في وطن بعثنا نستطيع ان نكون فقط شعبا من التجار والباعة المتجولين والسماسرة وليس عمالا منتجين .. (٧) » . وقد كان هنالك وعي لـ « خطر يحدق بنا من العامل الاجنبي (٨) .. » وانه « اذا اصبحت فلسطين كلها تابعة لليهود الاغنياء ، وكل العمال من العرب ، فان فلسطين ستكون في الواقع بلاد العرب وليست بلاد اليهود ... (٩) » ولذا فقد اعتبر العمل العبري شرطا للبعث (القومي) ويقول غوردون بهذا الصدد «ان عملية امتلاك الارض بالاموال لا تعتبر انقاذا بالمعنى القومي ، طالما ان الارض لا تستغل بأيدي اليهود .. ان انبعاث الشعب لا يمكن تصوره بدون عمل في الارض ... (ولذا) ينبغي علينا ان نضع العمل في مركز مطامحنا وان نؤسس عليه كل بنياننا .. (١٠) ».